المحاضرة الرابعة: الدعوة الإسلامية في مهدها الأول

1- التحنُّث والخُلْوة فنزول الوحْي

حُبّبت إلى رسول الله ﷺ الخلوة، فكان يبْتعد عن الناس ويعتزل المجتمع ليصفو مع نفسه، ويتأمّل في ملكوت الله عزّ وجل ويعبُد الله على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فكان يرتقي إلى جبلٍ قرْب مكّة ويخلُو في غارٍ يدْعَى "غار حِرَاء"، فكان يتحنَّثُ فيه اللّيالي الطّوال ذوات العدد، وكان يتزوّد لذلك حتى ينقطع زاده، فيعود إلى الدّيار فيمكث قليلا في بيْت خديجة رضي الله عنها، ثم يتقوّت من جديد، ويرجع إلى الغار للتعبّد والتأمّل، وكان ذلك ديْدنُه حتى نزل عليه الوحْي من ربّه[i].

وبينما هو على تلك الحال، وكان عليه الصلاة والسلام قد أتمّ الأربعين من عمره، نزل عليه الوحْي من الله عزّ وجل على يد جبريل عليه السلام في يوم 17 رمضان عام 13 قبل الهجرة[ii]، وأوّل ما بُدئ به رسول الله من الوحْي الرّؤيا الصالحة في النّوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم جاءه الحق وهو في غار حراء عن طريق الملَك جبريل الذي ضمّه وقال له: إقرأ، فردّ الرسول الأكرمﷺ: ما أنا بقارئ، فأخذه جبريل وغطَّه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، فقال: إقرأ، فرد الرسول الأكرمﷺ: ما أنا بقارئ، ففعل جبريل مثل ما فعل في المرة الأولى، وفي الثالثة تلا جبريل عليه السلام قوله تعالى:{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[iii]، فرجع الرسول الأكرمﷺ إلى بيت خديجة يرجِف فؤادُه لمَا رآه، فقال للسيّدة خديجة رضي الله عنها: زمّلوني، زمّلوني، فزمّلوه حتى هدأ روْعُه، ولمَّا أخْبر خديجة بما جرى له، قالت:" أبْشر فوالله لا يخريك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدّي الأمانة، وتحمل الكلَّ، وتقري الضّيف، وتعين على نوائب الحق"[iv]، وانطلقت به خديجة إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل وكان من أتباع الحنيفية، ولديْه علمٌ بالكُتُب السابقة، فقصّت عليه الخبر فقال ورقة: هذا النّاموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذَعا، ليتني أكون حيّا إذ يخرجك قومك، قال النبي الأكرم: أو مخرجيَّ هم، قال : نعم، لم يأتِ رجلٌ قط، بمثْل ما جئت به إلاّ عوديَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا[v]، ثم لم يلْبث ورقة أن توفي بعدها، وفَتَر الوحي أيّاما، فازدادت دهشة الرسول الأكرمﷺ وحيرته، ليأتيه جبريل ثانية

ويعلِمْه أنّه نبيُّ هذه الأمّة حقًّا، وقد رآه الرسول الأكرم ﷺ جالس على كرسيٍّ بين السماء والأرض، قال تعالى:{ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ةعَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى}[vi]، فأصابه الهلع والخوف ورجع إلى بيته يقول ويردّد: زملوني، دثّروني، فدثّروه وصبّوا عليه الماء البارد، فنزل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}[vii]، ثم نزلت سورة الضحى التي قال فيها عز و جل: {وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}[viii] وبعدها حمى الوحْي وتتابع[ix].

2- الدعوة المحمدية ومراحلها

بُعث محمد ﷺ فحمل الأمانة وبدأ يؤدّي الرسالة، وأدْرك أنّ الماضي قد انتهى بمنامه وهدوئه وسلامه، وأنّه أضْحى أمام عمل جديد يستدعي اليقظة والتّشمير والإنذار والإعْذار، فعليه حمل الرسالة وتوجيه الناس، ودعوتهم إلى وحدانية الله عزّ وجل، وتذكيرهم بالدار الآخرة، ولزوم العبادات وتزكية النفس، وانطلق الرسول الأكرم ﷺ في جهاد الدعوة مبشّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذْنه وسراجًا منيرًا.

أ- **الدعوة السّرية:** لمَّا نزل قوله تعالى "قُمْ فَأَنذِرْ" بدأ الرسول الأكرمﷺ يعرض الإسلام على ألْصق الناس به من آل بيْته وأصْدقائه، فأوّل من آمن به زوجتُه خديجة وابن عمها ورقة بن نوفل ومولاه زيد بن ثابت، وابن عمّه علي بن أبي طالب، وكان صبيًّا تحت كفالة الرسول الأكرمﷺ، ثم آمن صديقه الصّدّيق أبو بكر الذي سرعان ما تحوّل إلى داعٍ نشطٍ إلى الإسلام، حيث أسلم على يديه كبار الصحابة، من أمثال عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، والزبير بن العوّام، وكلّهم مبشّرون بالجنّة.

ب-**الدعوة الجهرية:** قال ابن عباس رضي الله عنه لما نزل قوله تعالى:{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}[x]، ونزل أيضا:{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}[xi]، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي:" يا بني فهر يا بني عدي، حتى اجتمعوا فقال الرسول الأكرم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيْلاً بالوادي تريد أن تغِير عليكم، أكنتم مصدّقي، قالوا: ما شهدنا عليك كذبا، قال: فإنّي نذير لكم بين يديْ عذابٍ شديد، فقال عمّه أبو لهب: تبًّا لك سائر

اليوم ألهذا جمعتنا، فنزل قوله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}[xii]، وبدأ الرسول الأكرم بعدها يدعو الناس في كلّ مجْمع ونادٍ، وفي المسجد الحرام، وفي الأسواق، وكان يستغلّ مواسم الحج ليدعو القبائل العربية الوافدة إلى مكّة[xiii]، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[xiv].

وبدأت قريش في أساليبها المتعددة للوقوف في وجه هذه الدعوة الجديدة[xv].

3- استراتيجيات قريش للوقوف في وجه الدعوة

- أسلوب المساومة
- الحرب الدعائية
- الإيذاء والتنكيل
- أسلوب الإغراء

وقد أخْفقت كلّ أساليب قريش في تعويق دعوة الاسلام، وأدركَت أنّ ما تصْبُو إليه بعيد المنال، فعادت سيرتها الأولى، تصبّ جامَ غضبها على المؤمنين، وتبذلُ كلّ ما في وسْعها للتنكيل بهم ومحاولة فتْنتهم عن دينهم، وحَزِن الرسول الأكرم ﷺ للمآسي التي تقع لأصحابه وهو عاجزٌ عن كفّها، فأوْعز إليهم بالهجرة إلى الحبشة وكان ذلك لخمس سنين من مبْعثه ﷺ.

4- الهجرة إلى الحبشة

قال الرسول الأكرم ﷺ لأصحابه: لو خرجْتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكا لا يُظلم عنده أحدٌ، وهي أرضُ صدقٍ، حتى يجْعل الله لكم فرجًا ممَّا أنتم فيه"[xvi]، فخرج عند ذلك المسلمون في أوّل هجرة في الاسلام، دون علْم قريش بها، وكان الفوج الأول مكوَّنا من بضْع أُسَرٍ فيهم رُقيّة بنت رسول الله ﷺ وزوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه، ونفَرٌ من المهاجرين لم يزيدوا جميعا عن ستة عشر، قال ابن سعد أحدَ عشر رجلا وأربع نسوة، وكان خروجهم في رجب من السنة الخامسة من مبْعثه ﷺ[xvii]، ثم كانت الهجرة الثانية التي قرّرت قريش منْعها وإحْباطها، بيْد أنّ المسلمين كانوا أسْرع في التنفيذ، بحيث استطاعوا مُباغَتَة أعْينِ قريش وخرجوا في ثلاث وثمانين

رجلاً وتسع عشرة امرأة، ويسَّر الله لهم السّفر، فانحازوا إلى النّجاشي ووجدوا عنده ما يبْغون من أمانٍ وطيبِ عيشٍ، وكَرَمِ وفادةٍ[xviii].

صور من معاناة النبي الأكرم

- **الحرب الاقتصادية**
- **عام الحزن:** وفيه فقد الرسول الاكرم سندين له، الأول زوجته خديجة التي كانت من أعظم نعم الله عليه، آزرته في أحرج الأوقات، وأعانته على إبلاغ رسالته، وشاركته مغارم الجهاد المر، والثاني عمه أبو طالب، ناصره وحاميه ودرعه الواقي من أذى قريش وعدوانها، فما نالت قريش من محمد بشيئ يكرهه حتى مات أبوطالب[xix]، وعلى ذلك سُمّي ذلك العام بعام الحزن.
- **مأساة الطائف:** حاول رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج برسالته من مكة، وتوجيه دعوته إلى غير قريش، علّه يجد في القبائل من يسمع ويستجيب لندائه، فتوجه نحو جنوب مكة وقصد الطائف لدعوة قبائل ثقيف وهوازن، فلم يجد منهم أقل ما وجده من قريش، حيث أنكروا دعوته وأغلظوا له الجواب.

مواساة السماء بحادثة الاسراء والمعراج

وقعت حادثة الاسراء والمعراج لرسول الله صلى الله عليه وسلم جسدا وروحا على الأرجح على دابّة الفراق، حيث أُسري به من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى المبارك ببيت المقدس ثم أُعرج به من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى بالسماوات العُلى، وأراه الله من آياته ما رأى، قال تعالى :"ولقد رآه نزلة أخرى...." وخلاصة هذه الرحلة أن الله أراد أن يبين لنبيّه أنه إذا رفضه أهل الأرض فأهل السماء يبتهلون به ويعظمونه.

---

[i] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري(ت256هـ) : صحيح البخاري، تحقيق أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر، الرياض، 1419هـ/ 1998م، كتاب بدء الوحي، الحديث رقم 3، ص21.

[ii] ابن كثير: البداية والنهاية، ج4/ص16.

[iii] قرآن كريم: سورة العلق، آية 1-3.ينظر الحديث كاملا في البخاري: صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، الحديث رقم 3، ص21.

[iv] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1/ ص576.

[v] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1/ ص576.

[vi] قرآن كريم: سورة النجم، آية1-10..
[vii] قرآن كريم: سورة المدثر، آية 1-7.
[viii] قرآن كريم: سورة الضّحى، آية 1-3.
[ix] ابن هشام: السيرة النبوية، ج1/ ص225. محمود شاكر: التاريخ الاسلامي، السيرة، ج2/ص47.
[x] قرآن كريم: الشعراء، آية 214.
[xi] قرآن كريم: الحجر، آية 94.
[xii] قرآن كريم : سورة المسد، آية 1-5. وينظر: محمد الغزالي: فقه السيرة، ص101.
[xiii] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1/ ص584.
[xiv] قرآن كريم: سورة سبأ، آية 28.
[xv] ابن كثير: البداية والنهاية، ج4/ص104.
[xvi] ابن هشام: السيرة النبوية، ج1/ص349.
[xvii] ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1/ ص173.
[xviii] الامام الغزالي: فقه السيرة، ص119.
[xix] صفي الرحمان المباركفوري: الرحيق المختوم،ص118.